

## على هامش المرائس والسياطين

## الطبيعة

في الشعر العربي والشعر العالمي

للأستاذ سيد قطب

أثارت مجموعة «عرائس وشياطين» التي اختارها الأستاذ المقاد من الشعر العالمي - وما زالت تثير - في نفسي موازنات شتى بين الشعر العربي والشعر العالمي في الاتجاهات العامة والخصائص الذاتية، وهذه الموازنات - كما قلت - ضرورية للجيل الجديد من الشعراء، يرى على ضوءها كيف يحسن أن يكون اتجاهه في الالتفات وطرائق التعبير، لا على سبيل التقليد والمحاكاة، ولكن على سبيل الاستفادة والتوجيه. ولهذا سأخرج في مقال اليوم قليلاً عن (المرائس والسياطين) فيما اختاره من النماذج العربية والعالمية

\*\*\*

يخيل إلى من مجموعة الشعر العربي أن (الطبيعة) لم تكن إلا قليلاً - متصلة بإحساس الشعراء العرب اتصال الصداقة والآلفة - بل اتصال المجموعة الحية - فهي في النال صلة عداة يمثلها قول الشاعر:

وركب كنت الريح تطلب عندهم

لها «رّة» من جذبها بالمصائب  
وإن كانت هذه الظاهرة العامة لا تنفي الأحاسيس المفردة لبعض الشعراء حينما تختلف البيئة كقول حمدونة الشاعرة الأندلسية:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم  
نزلنا دوحه فحنا علينا حنن الرضعات على القطيم  
وأرشفنا على ظاه زلالا ألد من المدامة والنديم  
وكأبيات المتنبي المعجمة في وصف شمع بوان وفيها ذلك البيت الجميل

يقول بشف بوان حصاني أمن هذا يسار إلى الطعان ١٢  
وظاهرة أخرى تغلب في الشعر العربي، وهي الإحساس بالطبيعة عند ألفها كأنها منظر يوصف أو يلتذ، لا شخصاً تحيا، وحياة تدب. والمواضع التي أحس فيها الشعراء العرب بالطبيعة هذا الإحساس الأخير تكاد تعد. فنحن إذا استثنينا - ابن الرومي - وكان بدءاً في الشعر العربي كله، لا نكاد نعتز إلا على أبيات ومقطعات يحس الشعراء فيها هذا الإحساس على تفاوت في قيمتها الفنية. نذكر منها على سبيل المثال قول مسلم ابن الوليد:

تمشى الرياح به حسرى مولدة حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد  
وأبيات البحتري في وصف الربيع التي مطلعها:

أناك الربيع الطلق يخفّال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلم  
وقول ابن خفاجة الأندلسي في وصف جبل:

وأرعن طماح الذؤابة شامخ بطاول أعنان السماء بقارب  
وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الأيالي ناظر في العواقب  
أصحت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى بالمجائب

وفيما عدا ابن الرومي وتلك الأبيات والمقطعات التي ضربنا لها هذه الأمثلة تكاد الطبيعة في الشعر العربي (تستعمل من الظاهر أ)؛ فهي منظر جامدة للوصف الحسي والتشبيه بالمحسوسات، تملو في سلم الفن، حتى تكون كأبيات المتنبي في شمع بوان، ونسفل حتى تصل إلى تشبيهات ابن المعتز جيماً! وظاهرة ثالثة: هي أن الطبيعة في الشعر العربي قد تحيا وتدب ويحس الشاعر بما يضطرب فيها من حياة، ويلاحظ خلجاتها ويحس نبضاتها، كما يصنع ابن الرومي في بدائمه. ولكنه هو لا يندمج في هذه الطبيعة، ولا يحس أنه شخص من شخصها وفرد من أبنائها، وأن حركته من حركاتها، ونبضه من نبضاتها، وأنه منها وإليها، وأحاسيسه موصولة بأحاسيسها

فإن الرومي حين يقول:

لم يبق للأرض من سرنا كاتم إلا وقد أظهرته بعد إخفاء  
أبدت طرائف وشي من أزهارها  
حراً وصيفاً وكل نبت غبراء

أو حين يقول :

رياض تخاليل الأرض فيها خيملاء الفتاة بالأبرار  
منظر معجب تحية أنف ريحه ريح طيب الأولاد  
إنما يبلغ في هذين المثاليين وفي غيرها أبدع ما يبلغه الشعر  
العربي من الإحساس بحياة الطبيعة ، ولكنه يبقى في منتصف  
الطريق بين هذا المدى ، والمدى الذي يبلغه الشعر العالمي عند  
بعض الأمم في الاتصال بالطبيعة اتصال الفرد بالأسرة والخلية  
بالجسم الحي ، والذرة الصغيرة بالكيان الكبير

فها هي ذى الشاعرة الإنجليزية المعاصرة « روث بتر » ،  
تقول في مجموعة العرائس والشياطين ، للموت :

لا تناديني والصيف مشرق أيها الموت !  
إنني في الصيف لن أجيب النداء  
حين يوسوس العشب ويتمايل بأعطافه  
لا ترفع إلى صوتك بالنداء من تلك الظلال السفلى  
« حين يحن الصفصاف ويتفرق الماء  
حين يتوأن الجدول وينفس الهواء  
حين يتموج اللبلاب على الأسوار  
لا تنادني . قلت لك لا تنادني أيها الموت في ذلك الأوان  
إنك عبتك تنادي وترفع الصوت بالنداء  
ففي إبان الأزاهير النامية لن أصنى إليك »

\*\*\*

« لكنني سأصنى إليك حين يتجرد كل حال وحالية  
ومرحباً بدعائك حين ينتثر الورق من الشجر على تراه  
حين يسمع للسفوح فحيح في العاصف المهتاج  
حين يشم الرعاة من الشرق رائحة الثلوج  
حين يهجر الحقل للريح تتولى حصاده  
حين يصبح الإعصار حطاب الوادي الذي يطيح بأعواده  
حين يصبح البرد بذرة الأرض التي تنثرها السماء  
حين نفر من كل شيء ولا نتوق إلى شيء  
ناد يومئذ يا موت ولك الإهداء والترحاب  
فيومئذ أسمع وأنفض وأمضي ! »

وليس لدينا من الفراغ ما نقف به على مواضع الجمال الجزئية

٢٣ - ٨

في تصوير الطبيعة في الصيف إبان الحياة ، وفي الشتاء إبان  
الموت ، ولا في تصوير وسوسات الحياة ووساوس الموت هنا  
وهناك : « حين يوسوس العشب ويتمايل بأعطافه . وحين يحن  
الصفصاف ويتفرق الماء . وحين يتوأن الجدول وينفس الهواء » ،  
أو : « حين يسمع للسفوح فحيح في العاصف المهتاج . وحين  
يصبح الإعصار حطاب الوادي الذي يطيح بأعواده . وحين  
يهجر الحقل للريح تتولى حصاده » ... الخ . فهذه جزئيات قد  
تخطر للشعر العربي ، ولا سيما لابن الرومي

ولكننا نتجاوز هذا إلى الظاهرة الكبيرة الجامعة في هذه  
المقطوعة . تلك هي شعور الفتاة بأنها لا تستطيع أن تموت  
والطبيعة في فصل الحياة ، ولن تلب الموت إذا دعاها ، لأن  
الطبيعة حولها حتى وهي خلية حية في هذه الطبيعة النامية .  
أما حين يدب الموت في الأم الكبيرة . فهنا يحس أبنائها  
أن لا مانع من إجابة دعاء الموت ، وذلك « حين نفر من كل شيء  
ولا نتوق إلى شيء » ، وحين يدب الموت من الداخل تسهل إجابة  
النداء من الخارج

وفي القطعة مجال لتصوير « المرأة » التي تحسب الموت طوع  
ورغبتها ورغبات الحياة النابضة في قلبها كأما الطبيعة ، فهي  
تناديه أن ينصرف عنها الآن ، كما تنادي الخطيب والحبيب في  
تمنع وإدلال ! ولكننا معجلون عن الإفاضة في هذا إلى إيضاح  
الظاهرة الكبيرة الجامعة في قطعة أخرى لفتاة جديدة !  
« للورنس هوب » الاسم الرمزي لشاعرة إنجليزية معاصرة أيضاً !  
إن رفيق الحياة يدعوها . . . وإنها لترغب في إجابة دعوة  
الحب والحياة . ولكن الطبيعة حولها حزينة والليلة شاتية ،  
وإنها لشعر أنها هي وهو ونمرة هذه الاستجابة إنما هم جميعاً  
خلالاً في هذا الجسم الحي ، وأن هذا الحزن الذي يدب في حنايا  
الطبيعة سيتسرب في « الروح الهائجة على أعتاب الدنيا تستجد  
فيها جثائها » . فتنشأ الثمرة وفيها من هذا الحزن قطرات .  
فلتؤجل الدعوة إذن إلى حين تكون الطبيعة كلها في فرح  
صباح :

« لا ... غير هذه الليلة ! »

إن الطر يقطر حزينا وانينا ...

عبرات أسمى تحت سماء شجيرة

وعلى البعد « ابن آوى » هزبل خافت العواء

يزيد الفسق وحشة وعزلة

\*\*\*

« النهر الدافق يتقدم إلى البحر بهمة الشكوى

والظلال تؤوى إليها الوسوس الخفية

وعيناي ترنوان نحو عينيك ابتغاء عزاء

فتلقاهما الأهداب مبللة بالدموع

\*\*\*

« إن الروح الهائمة على أعتاب الدنيا تستجيد فيها جثمانها

إن دخلت من خلال قبالتنا إلى حظيرة الحياة

ورثت كل ما في قلوبنا من أسمى

وكل ما في المطر المنحدر من شجن مكظوم

\*\*\*

« لا . حين تشتهي استجابة الحب الكبرى

أقبل إلى « الصباح يرتع في الأنوار

والبلابل من حولنا مشوقة تصدح بالغناء

بين الورود من حجر ويض

\*\*\*

« وكذلك حين يقضى الله لى تلك الفريضة الحلوة القدسية

مذعنة لمشيته الإلهية

كى أمنح الدنيا صورة من جمالك

لأسلمها إذن إلى الدنيا ومعهما فرحى فيك »

فهذه شاعرة وامرأة . يبدو في مقطوعتها طريقة إحساسها

بفرح الطبيعة وحزنها ، وتبين الوشائج الحية بينها وبين هذه

الأم الكبيرة ؛ وهذه هى الظاهرة التى تريد إبرازها . ولكن

هذا لا ينسبنا أن نقف مرتين أمام موضعين من مواضع الإبداع

فى القصيدة :

الأول : طريقة الإحساس بحزن الطبيعة وفرحها : فالطر

« الذى يقطر حزناً وانياً عبرات أسمى تحت سماء شجيرة » يجتمع

إلى « ابن آوى هزبل خافت العواء على البعد » فيزيد الفسق

وحشة وعزلة . و « النهر الدافق يتقدم إلى البحر بهمة

الشكوى » يجتمع إلى « الظلال تؤوى إليها الوسوس الخفية »

وكلاهما يجتمع إلى « عينها ترنوان نحو عينيه ابتغاء عزاء فتلقاهما

الأهداب مبللة بالدموع » . ثم فى الوجه الآخر : « الصباح

يرتع فى الأنوار . والبلابل مشوقة تصدح بالغناء » وكلمة « مشوقة »

خاصة فى هذا المكان إنها لوحة متناسقة الألوان أو سيمفونية

متوافقة الألحان بين الطبيعة وأبنائها الجميع

والثانى : تلك الكناية الدقيقة البارة عن « الروح الهائمة

على أعتاب الدنيا تستجيد فيها جثمانها » وعن « استجابة الحب

الكبرى » التى ترتفع بها وترتفع حتى تحملها « الفريضة الحلوة

القدسية التى يقضىها الله » . إنها كناية امرأة . وامرأة تحب .

وامرأة شاعرة تجتمع كلها فى سياق !

\*\*\*

وقد توجهنا حتى الآن فى الموازنة بين الشعر العربى والشعر

العالمى إلى شعراء الغرب فى مجموعة « المرائس والشياطين »

وبخاصة الشعراء الإنجليز ، فلنتوجه نحو الشرق أيضاً فى هذه

الموازنة فى الشرق البعيد ، وفى مصر الفرعونية مثل نتقدم بها

مطمئنين

يقول الشاعر الصينى « يوان مى » من شعراء القرن

الثامن عشر الميلادى بعنوان « زهر الصفصاف » :

« أزهار الصفصاف كندبف الثلوج ... إلى أين ؟

أين تمضى جموعك الضالة مع الريح ؟

\*\*\*

« قلما نبألى . وأقل من ذلك ما ندرى !

إنما سبيلنا من سبيل الهواء

حياتنا فى دواماته العاصفة

وموتنا فى الهاوية هناك »

فهذا إنسان يحس بنفسه وبالناس كزهرة أو أزهار

للصفصاف . « سبيلهم جميعاً من سبيل الهواء . حياتهم فى دواماته

العاصفة وموتهم فى الهاوية هناك » . فيزيد على إحساس الغربيين

بالاندماج فى الطبيعة ، تلك الصوفية الغيبية ، طابع الشرق

الجميل العميق البسيط الذى لا يكاد يبدو فى الشعر العربى

وفى المجموعة قطعة أخرى للشاعر نفسه فيها هذه الصوفية

وسأقطع الخبز وأصب النبيذ  
سأقطف لك الأزهار النضرة

\*\*\*

« في يوم هذا العيد السعيد  
ستكون سيدتي وحدها مع حبيبها  
آه . سأصمت عما أرى  
ولا أنفوه بما سمعت ! »

\*\*\*

إن إحياء الطبيعة والاندماج في حياتها ، كلاهما مرحلة بعد  
أخرى . وكلاهما في حاجة إلى رصيد ضخم مذكور من الحيوية  
الباطنية . وقد كانت حيوية العرب حيوية حس تنفق أولاً بأول  
في الانفعال القريب والحركة المباشرة ، والعمل المنظور . فلم يبق  
في نفوسهم ذلك الرصيد المذخور في الباطن للتأملات والتصورات ،  
التي هي أعلى وأعز ما في الفنون . ولعل في هذا تليلاً لعدم نمو  
القصة الفنية في الأدب العربي إلا على نحو قريب من الحكاية والخبر  
والكلام في هذا الموضوع يطول . وليس هذا المقال موضعه  
على كل حال .

سيد قطب

الرقيقة وبجانها إحساس المودة الصادقة بينه وبين الطبيعة التي  
تداعبه نباتها وترسل عليه زحاما من العطور وتبسم في وجهه  
وهو لا يدري من زحمة العطور عليه عطر الورد من عطر البشنيين :

« على ضفة الجدول القرني

تطيف بي الأحلام في الفسق المزنبق

وتداعبني نسائم الربيع

فترسل علي زحاما من العطور

وتبسم في وجهي حين لا أدري

عطر الورد من عطر البشنيين »

ونتجاوز مجموعة « المرائس والشياطين » لنقع على أغنية  
مصرية قديمة حيث : « تدعو شجرة الجيز فتاة إلى موعد حب  
تحت ظلالها ، واعدة أن تكون أمينة على أسرارها » !

وفي الموضوع كما ترى تلك الصداقة الحلوة بين شجرة الجيز  
وبين الحبيبتين ، حيث تشترك الطبيعة في مباركة الحب . فإذا  
أضفنا إلى ذلك أن شجرة الجيز كانت مقدسة عند المصريين  
لأن إلهة « الخصب » « حانخور » كانت تسكنها وترسم مطلة  
بين فروعهما ، زاد الموضوع قوة . فليست الطبيعة وحدها هي  
التي تبارك الحب بل الآلهة أيضاً ، وإلهة الخصب بنوع خاص !  
وهذه المقطوعة مترجمة ترجمة حرفية ربما ذهبت بالكثير  
من جمالها ولكنها تفي بالفرض الموضوعي :

« غنت شجرة الجيز إلى فتاة جميلة

وكانت كلماتها تنساق كقطرات الشهد

فأصبح الثمر الذي أحمله بلون الياقوت الأحمر

وكل ما في تعريشتي لأجلك

\*\*\*

« إن أوراق تزدان بلون خضرة البردي

وفرعي وجذعي لها بريق عين المهر

تعال تحت ظلي الرطب

ليستريح حلم قلبك الذي به تحلمين

\*\*\*

« سترسل سيدتي رسالة حب

إلى الشخص الذي سيكون سميذاً

قائلة : احضر إلي حديقتي قليلاً

واجلس معي في ظلي

سأجني لك الفاكهة لسرورك

ظهرت لأول مرة بمناسبة العيد الألفي للفيلسوف أبي العلاء المعري

## رسالة الهناء

لأبي العلاء المعري

جزءان في سفر واحد

شرح وتحقيق الأستاذ الكبير

دامل كيموي

الذي حجب الأدب العلاءي إلى كل قارئ

كما حجب القراءة إلى كل ناشئ

الثنى ٣٥ قرشاً صاغاً - ولا بريد ٦٣ ملياً

يطلب من الناشر

دار الكتب الوطنية

بميدان الأوبرا - ت ١٩٥٦١

وفي السودان من مكتبة

كردفان بالآبيض